معهود العرب في الخطاب عند الشاطبي و أثره في التفسير العلمي

The Arab familiarity in the speech at Al-Shatabi and its impact on scientific interpretation

الدكتورة: مختارية بوسيف

جامعة الجيلالي اليابس-سيدي بلعباس

البريد الالكتروني: Boucifmokhtaria3@gmail.com

الملخص:

تعتبر مسألة معهود العرب في الخطاب من المسائل الأساسية التي يبنى عليها فهم الشريعة الإسلامية، خصوصا علم التفسير، وقد اعتبرها العلماء ضابطا منهجيا منذ بداية تدوين العلوم انطلاقا من الشافعي وصولا إلى الشاطبي.

وقد كانت عناية الشاطبي بها فائقة لكون هذا الكتاب نزل بلغة العرب فلابد لفهمه أن نسلك طريق معهود العرب في أقوالها وأفعالها معا.

ومعهود العرب لفظ يتسع ليشمل جميع القواعد،و الأعراف، والخصائص،والأساليب والمعاني، وجميع أوجه الاستعمال اللغوي الذي عرفه العرب وقت التنزيل، أما"معهود العرب في الخطاب"فهو يعني مجموع الأنماط، والأساليب الخطابية التي عهدها، وعرفها العرب في الاتصال بلسانها العربي، وهو ضابط منهجي، ومعيار أساسي لأي تفسير، أو تأويل، أو دراسة لمعاني القرآن، أو لبيانه النبوي، ويعتبر من الشروط، و الموازين اللغوية الأساسية التي لابد أن يخضع لها الكلام من حيث مبناه، وتحدد تحت ضوئه دلالات الألفاظ، و أطر المعاني.

وقد رتب الشاطبي على ضوءه أمورا أساسية منها اعتبار هذه الشريعة أمية، وأن لابد في فهمها من الأخذ بهذا الوصف، فكل علم لم تعرفه العرب مرفوض؛ وعليه فالعلوم التي ذكرت في القرآن الكريم هي من جنس علوم العرب، أو ما ينبني على معهودها.وهو بهذا يقف مع الرافضين للتفسير العلمي للقرآن

الكريم، بحجة أن نسبة كل العلوم لكتاب الله تعالى فيه اسراف يجب أن ينزه القرآن عنه، لكن الحقيقة أن مذهب الشاطبي في المسألة مردود من عدة وجوه، من أهمها أن القرآن الكريم إنما جاء لينقل العرب وغيرهم من حال إلى حال أفضل منه، فوصف الشريعة بالأمية لا دليل عليه، وبقاء العرب على أميتهم أمر حاربه الإسلام منذ نزوله عن طريق فرض التعلم.كما وأن التفسير العلمي أصبح في عصرنا الحاضر حاجة ملحة، يستدعيها واقع الدعوة إلى الإسلام في عالم لغة تخاطبه العلم فقط.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم؛ معهود العرب؛ الشاطبي؛ التفسير العلمي.

summary:
The question of the Arab familiarity in the discourse is one of the main issues on which understanding Islamic law is based, especially the science of interpretation, and scientists have considered it a systematic officer from the beginning of the writing of science from Shafi'i to Al-Shatabi

Al-Shatabi's attention to her was great because this book came down in the Arabic language, and it must be understood that we take the path of the Arab familiarity in both her words and her actions

The Arab covenant is a word that extends to all rules, customs, characteristics, methods and meanings, and all aspects of linguistic use that the Arabs knew at the time of download, but "the Arab tradition in the discourse" means the sum of the patterns, the rhetorical methods that it has entrusted, and the Arabs have known in Communication with her Arabic tongue, a systematic officer, and a basic criterion for any interpretation, interpretation or study of the meanings of the Qur'an or his prophetic statement, are considered to be basic conditions and linguistic balances, to which speech must be subject in terms of its building, and to determine under its light the connotations of words, and the frameworks of meanings

In its light, Al-Shatabi has arranged basic things, including considering this sharia as illiterate and must be understood from this description. The Qur'an came to move Arabs and others to a

better state than it is, describing Sharia as illiterate, and keeping Arabs illiterate is something Islam has fought since its descent by imposing learning
Keywords: Qur'an; Arab Familiarity; Al-Shatabi; Scientific Interpretation

مقدمة:

الحمد لله العظيم القائل في كتابه الكريم" إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "[سورة يوسف الآية 02]والصلاة والسلام على النبي العربي الأمي المبعوث رحمة للعالمين بلسان عربي مبين وعلى آله، وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

تعد اللغة العربية أفضل اللغات و أشرفها؛ بها أنزل الله تعالى كتابه؛ وبها تكلم رسولنا محمد ﷺولذا كان تعلمها أمرا ضروريا، لفهم هذا الدين فهما سليما.

فاللغة باعتبارها أداة تواصل وتعبير عما يتصوره الإنسان ويشعر به، هي وعاء للمضامين المنقولة سواء كان مصدرها الوحي، أم الحس، أم العقل، كما أنها أداة لتمحيص المعرفة الصحيحة، و ضبط التخاطب السليم، فهي من لوازم المنهج العلمي؛ لذلك يرى كثير من العلماء أن تعلم اللغة العربية من الدين، و أنه فرض واجب لفهم مقاصد الكتاب والسنة، ومراد الشارع من خطابه؛ فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[1]

ولقد أنزل الله تعالى القرآن العظيم باللغة العربية ليكون محل إعجاز وتحد للعرب و لغيرهم ، هذا الإعجاز ليس على مستوى الأسلوب و الصياغة فقط،وإنما على الأصعدة المتعددة ،اللغوية منها و الفكرية،أو على مستوى التعبير والتفكير معا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا يعني:أن اللغة العربية تمتلك من الخصائص، والصفات والقدرات التعبيرية مالا تمتلكه لغة أخرى، أو أي لسان آخر، فاختيار العربية لغة التنزيل هو بلا شك تشريف لها من بين سائر اللغات.

[1]إعجاز القرآن والدلالات الصرفية:يوسف المرعشلي،ص05

أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية:سميح عبد الوهاب الجندي، ص92.

وتكليف لها بأداء وتوصيل الخطاب الإلهي للناس، بما هي أهل له ،فلولا الأهلية لما كان الاختيار[2] .

والقرآن الكريم باعتباره كلاما معجزا من كل النواحي شكل الإعجاز البياني أهم وجوهه وأبرزها، به وقع التحدي للعرب وقت التنزيل حيث بلغوا ذروة الفصاحة والبيان.

وعليه لا يمكن فهم الخطاب الإلهي (قرآنا وسنة)إلا بالرجوع إلى لغة العرب وقت التنزيل كضابط منهجي، وهو ما اصطلح عليه العلماء بـ "معهود العرب في الخطاب" فما المقصود بهذا الضابط؟ وما أهمية اعتباره في فهم الشريعة عموما والنص القرآني خصوصا؟

من هذا التساؤل نعبر إلى علامة عصره والعصور التي بعده الإمام الشاطبي لنقف معه في حديثه عن لهذا الضابط، إذ يعتبر رحمه الله من أبرز العلماء الذين نادوا بالالتفات إلى معهود العرب في أقوالهم ومجاري أحوالهم لفهم الشريعة

فإلى أي مدى وظف الإمام الشاطبي معهود العرب لفهم الشريعة ؟وكيف جعل رحمه الله من هذا الضابط حاكما على تفسير نصوص القرآن الكريم؟و هل يمكن اعتبار التفسير العلمي للقرآن مخالفا لمعهود العرب؟

كل هذا سنجيب عليه بالتفصيل في هذه الورقة البحثية متبعين خطة واضحة المعالم نبدأها بتعريف معهود العرب لغة واصطلاحا، ثم نعرج على أهمية اعتباره في فهم الشريعة عموما، وعند الإمام الشاطبي خصوصا، ثم نحيل على ما تفرع عن هذا الضابط عنده بنوع من التفصيل، ونقف مع أهل العلم في موافقتهم لهذا القول أو مخالفتهم له، لنتوج كل ذلك بجملة من النتائج، ملتزمين المنهج التحليلي لكونه يناسب هذا الطرح.

<u>المقصود بمعهود العرب في الخطاب:</u>

---

[2] يوسف المرعشلي:المرجع نفسه،ص 06

المعهود لغة مأخوذ من العَهْدُ وهو:الوَصِيّةُ والتقَدُّمُ إلى صاحبك بشيء،والعَهْدُ:المَوْثِق،والعَهْدُ:الالْتِقاءُ والإلمامُ، جمعُه عُهُود[1]،والمعهود الأمر الَّذِي عُهِدَ وعُرِفَ، وعَهِدَ الشيءَ عَهْداً: عرَفه[2]

هذا معناه لغة أما اصطلاحا فإن لفظ المعهود عند أهل الاختصاص يتسع ليشمل جميع القواعد،و الأعراف، والخصائص،والأساليب والمعاني اللغوية،وجميع أوجه الاستعمال اللغوي ،وأنواع المجال اللغوي المتداولة بين مستخدمي لغة معينة.

فالمعهود بذلك عرف شائع بين أهل اللغة شامل ملزم لهم ولمن يستخدم لغتهم، ويشتركون فيه من أجل تحقيق الاتصال فيما بينهم[3].

أما "معهود العرب في الخطاب" فهو يعني مجموع الأنماط ،والأساليب الخطابية التي عهدها وعرفها العرب في الاتصال بلسانها العربي.

و المصطلحات الدالة على هذا المعنى عديدة منها :"ما عهده"،و"العرف"،و"العادات"و،"المألوف"و،"ما ألفت"،و"و ما كانت عليه العرب" فهذه الألفاظ وغيرها تدل على العادات اللغوية التي درجت عليها العرب في استخدام لغتها وتلقيها[4]

أهمية اعتماد معهود العرب لفهم الخطاب

إن قضية معهود العرب في الخطاب من حيث السلامة في اللفظ، والإبانة في المعنى، كضابط منهجي، و معيار لأي تفسير أو تأويل أو دراسة لمعاني القرآن أو لبيانه النبوي ،تعتبر من الشروط و الموازين اللغوية الأساسية ،التي لابد أن يخضع

(1)كتاب العين:أبو عبد الرحمن الخليل الفراهيدي، ت:مهدي المخزومي،ج1،ص 102.

(2)لسان العرب:جمال الدين ابن منظور،ج03،ص297.

(3)معهود العرب في تلقي الخطاب الديني:أحمد شيخ عبد السلام، مجلة الشريعة الدراسات الإسلامية،المجلد 17 العدد 48، سنة:2002،ص01

(4)المرجع نفسه ،ص01

لها الكلام من حيث مبناه، وتحدد تحت ضوئه دلالات الألفاظ، و أطر المعاني، على الرغم من أن اللغة أداة توصيل وتفكير،وليست مصدرا للأحكام.[1]

إن الكتاب والسنة هما يحكمان على اللغة، ولا تحكمهما ؛لأنهما في القمة من التعبير و البلاغة و الإعجاز، وعلى الرغم من أنهما أضافا دلالات عرفية، ومصطلحات شرعية لم تعرفها اللغة من قبل التنزيل؛ علما أن هذه المصطلحات الشرعية الجديدة لم تخرج عن الدلالات اللغوية الأولى في معهود العرب وإنما استصحبتها، وطورتها، فإن هذا لا يلغي اعتماد"معهود العرب في الخطاب "لتحديد الدلالات، وفك الالتباس من هنا اعتبر المفسرون اللغة العربية من العلوم التي يستمد منه علم التفسير وجوده[2]

ومن هنا رفض العلماء أي تأويل باطني للفرق الضالة يأتي نتيجة لعقائد زائغة فاسدة مسبقة عند أهلها؛ لأنه لا يخضع لمعهود العرب في الخطاب، والقرآن نزل"بلسان عربي مبين"ولأن ذلك يفتح الباب على مصراعيه لكسر موازين اللغة، وتحريف دلالاتها، ويشكل منزلقا ومدخلا ينتهي إلى أن يقول في كتاب الله،كل من شاء ما شاء، كما يؤدي إلى الفوضى في المفاهيم، وزلزلة الثقة بمصادر الدين[3].

على هذا الأساس شغل الاهتمام بمعهود العرب في الخطاب حيزا بارزا في مجال دراسات العلماء قديما، وحديثا، باعتباره معيارا منهجيا لفهم الكتاب و السنة، ظهر هذا الاهتمام مع بداية التدوين في التأصيل، والتقعيد لفهم النص الشرعي، وتحديدا مع الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، حيث اعتنى بإبراز أهمية اعتبار

---

[1] إعجاز القرآن و الدلالات الصرفية:يوسف المرعشلي، ص 06

[2] المرجع نفسه،ص 06 ،و التحرير والتنوير:الطاهر بن عاشور،ج 1،ص 18،19

[3] الموافقات في أصول الشريعة:أبو إسحاق الشاطبي، ت:عبد الله دراز،ج 3 ،ص:295

يوسف المرعشلي:المرجع نفسه،ص07

معهود العرب في فهم الخطاب الإسلامي، لوروده وفق عرف العرب في لسانها، وتعرض لجملة من مظاهر المعهود اللغوي.

و صاغ قواعد ومناهج لدراسة النصوص الشرعية، منطلقا من قواعد العربية ومعهود العرب فيها، وكذا ما تحصل من أدلة مجمع عليها، بالإضافة إلى موافقة روح التنزيل ومقاصده.[1]

معهود العرب في الخطاب عند أبي إسحاق الشاطبي:

برز الاهتمام بمعهود العرب جليا عند الإمام الشاطبي حيث يقدم له بقوله:"إن هذه الشريعة المباركة عربية...أن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق...فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم،ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة..."ثم يرتب على هذا الكلام أهمية اعتبار معهود العرب في الخطاب فيقول رحمه الله:"فإن قلنا إن القرآن نزل بلغة العرب وإنه عربي و إنه لا عجمة فيه، فبمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة، وأساليب معانيها، وإنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه،وبالعام يراد به الخاص..."وذكر جملة من أساليب العرب ثم قال:"فإذا كان كذلك فالقرآن في معانيه و أساليبه على هذا الترتيب"[2]

توظيف معهود العرب في الخطاب عند الشاطبي:

يذهب الإمام الشاطبي في قضية إتباع معهود العرب في الخطاب إلى أبعد مدى، ويبني عليها مسائل منها:

---

[1] معهود العرب في الخطاب:نحو صياغة قواعد التفسير:عبد الحميد السراوي، موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، 2008/03/20الساعة:05:56.-معهود العرب في تلقي الخطاب الديني:أحمد شيخ عبد السلام(المرجع السابق).

[2] الموافقات ج2ص49-50.

•**أن هذه الشريعة المباركة أمية** موضوعة على وصف الأمية لأن أهلها كذلك،واستدل على ذلك بأمور:

أحدها:النصوص المتواترة لفظا ومعنا كقوله تعالى"هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ"[سورة الجمعة من الآية02]والأمي-عنده-المنسوب إلى الأم،وهو الباقي على أصل ولادة الأم لم يتعلم كتابا ولا غيره،فالعرب أميون لأنهم لم يكن لهم علم بعلوم الأقدمين،وفي الحديث"نحن أُمَةٌ أُمِيَةٌ لَا نَكْتُب وَلَا نَحْسِب الشَهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وهَكَذَا"[3]

أدلة هذا كثيرة من الكتاب والسنة، تدل على أن الشريعة موضوعة على وصف الأمية لأن أهلها كذلك.[1]

والثاني : أن الشريعة جاءت للعرب خصوصا وغيرهم عموما، فإما أن تنطبق على ما هم عليهم من وصف الأمية، أو لا .فإن كان كذلك فهو معنى كونها أمية أي منسوبة إلى الأميين،و إن لم تكن على غير ما عهدوا فلم تكن لتنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها،فلابد أن تكون على ما يعهدون والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله به من الأمية، فالشريعة إذا أمية.

والثالث:أنه لو لم تكن الشريعة على ما هم عليهم من وصف الأمية لكان ادعى إلى خروجهم عن مقتضى التعجيز، فيقولون:هذا على غير ما عهدنا؛ إذ ليس لنا عهد بمثل هذا الكلام من حيث إن كلامنا معروف مفهوم عندنا و هذا ليس بمفهوم و لا معروف، فلم تقم الحجة عليهم به، لكن العرب أذعنت عند ظهور الحجة فدل على علمهم به، وعهدهم بمثله، مع العجز عن مماثلته[2]

[3]رواه البخاري في الصحيح عن ابن عمر،(واللفظ له)كتاب:الصوم،باب:قول النبي لا نكتب ولا نحسب.فتح الباري شرح صحيح البخاري ابن حجر العسقلاني،ج 4 ،ص 27

[1]الموافقات ج2ص53.

[2]المصدر نفسه ج2ص54

إذا بناء على الأدلة التي ساقها الشاطبي تقرر عنده أن الشريعة المباركة أمية، ثم ذكر رحمه الله بعد هذا جملة من العلوم اعتنى بها العرب، ذكرها الناس، لم تمنع وصفهم بالأمية، نقف معه في بيانها.

♦من هذه العلوم التي أوردها:علم النجوم و ما يختص بها من الاهتداء في ظلمات البر والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها و ما يتعلق بها المعنى، وهذا معنى مقرر في أثناء القرآن الكريم في العديد من الآيات، كقوله تعالى"وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ"[سورة الأنعام 97]

♦منها علم الأنواء وأوقات نزول الأمطار، وهبوب الرياح المثيرة للسحاب، فبين الشرع الحق فيها من الباطل قال سبحانه وتعالى"هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ"[سورة يس الآيات 39]،وأبطل ما كانت تعتقده العرب من أن المطر ينزل بالنوء وهو نجم.

♦ومنها علم التاريخ،و أخبار الأمم السابقة، وفي القرآن والسنة كثير من أخبار الغيب التي لم تكن العرب تعرفها، لكنها من جنس ما كانوا ينتحلون.
قال الله تعالى مخبرا عن ذلك :"تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ"[سورة هود الآية 49]كما ذكرت قصة إبراهيم أبو العرب وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام في بناء البيت وغير ذلك مما جرى.

♦كما أبطلت الشريعة علوما كانت عند العرب كعلم العيافة (التطير بالطير ونحوه)، والزجر، والكهانة، وخط الرمل، والضرب بالحصى لأنها ادعاء للغيب من غير دليل وقد جاء النبي ﷺ بالوحي، وعلم الغيب مما هو حق محض، وأقر بذلك الرؤيا الصالحة، والإلهام والفراسة،والفأل.

♦منها :علم الطب .فقد كان في العرب منه شيء لا على ما عند الأوائل ،بل مأخوذ من تجارب الأميين،غير مبني على علوم الطبيعة التي يقررها الأقدمون .وعلى ذلك المساق جاء في الشريعة،لكن على وجه جامع شاف،قليل منه يطلع على كثير فقال تعالى"كلوا واشربوا و لا تسرفوا"[سورة الأعراف31]وجاء في الحديث التعريف

ببعض الأدوية لبعض الأدواء، وأبطل من ذلك ما هو باطل،كالتداوي بالخمر والرقى المحرمة.

♦كما ذكر رحمه الله اشتهار العرب بفنون البلاغة ووجوه الفصاحة والتصرف في أساليب الكلام ،وكان من أعظم منتحلاتهم،فجاء القرآن بما أعجزهم عن الإتيان بمثله،قال الله تعالى" قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"[سورة الإسراء 88] .

♦و من علوم العرب ضرب الأمثال،فجاء في القرآن شيء من ذلك في قوله تعالى"وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ"[سورة الروم 58]إلا ضربا واحدا، وهو الشعر، فقد استثناه،وبرأ الشريعة منه،و بين الله تعالى أنه ليس مبنيا على أصل بل هو هيمان على غير تحصيل، وقول لا يصدقه عمل، وهو مضاد لما جاءت به الشريعة، بين معنى هذا قوله تعالى"وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ226"[سورة الشعراء]إلا ما استثناه الله من ذلك.ثم يتابع قائلا:"فهذا أنموذج ينبهك على ما نحن بسبيله، بالنسبة إلى علوم الشريعة.[1]

♦أما ما يرجع إلى الاتصاف بمكارم الأخلاق وما يضاف إليها فهو أول ما خوطبوا به، و أكثر ما تجد ذلك في السور المكية من حيث كان آنس لهم، وأجرى على ما يتمدح عندهم، كقوله ﷻ"إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى"[سورة النحل 90]إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

لكن أدرج فيها ما هو أولى:من النهي عن الإشراك والتكذيب بأمور الآخرة، وشبه ذلك مما هو المقصود الأعظم، وأبطل لهم ما كانوا يعدونه كرما و أخلاقا حسنة وليس كذلك ،أو فيه من المفاسد ما يربي على المصالح التي توهموها...مثل الخمر والميسر..."إلى أن قال:"إلا أن مكارم الأخلاق إنما كانت على ضربين:أحدها ما كان مألوفا وقريبا من المعقول المقبول،كانوا في ابتداء الإسلام إنما خوطبوا به.ثم لما

[1] الموافقات:الشاطبي، ج 2،ص 56 إلى 59

رسخوا فيه تمم لهم ما بقي وهو الضرب الثاني .وكان منه ما لا يعقل معناه من أول وهلة فأُخر،حتى كان من آخره تحريم الربا، وما أشبه ذلك. وجميع ذلك راجع لمكارم الأخلاق وهو الذي كان معهودا عندهم على الجملة"[1]

ويرى الشاطبي أن اللهﷻقد خاطب العرب بدلائل التوحيد فيما كان معروفا عندهم من سماء، وأرض وجبال، ودلائل الآخرة و النبوة كذلك، و لما كان عندهم من شرائع الأنبياء شيء من شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبهم خوطبوا من تلك الجهة ودعوا إليها، وأن ما جاء به محمدﷺهي تلك بعينها كقوله تعالى" مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا"[سورة الحج 78] غير أنهم غيروا جملة منها، وزادوا، واختلفوا، فجاء تقويمها من جهة محمد ﷺ،وأخبروا أن ما جاء بهﷺ هي تلك بعينها.

ويذهب الشاطبي إلى أبعد من ذلك حتى قال أن العرب قد أخبروا عن الجنة ونعيمها مما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا، إلا أنه مبرأ من الآفات التي تكون في النعيم الدنيوي، و بين أن مأكولات الجنة ومشروباتها مما هو معلوم عندهم كالماء واللبن...دون الجوز واللوز من فواكه الأرياف وبلاد العجم.

و جادلهم بالتي هي أحسن و قد كانوا عارفين بالحكمة، فأتاهم من الحكمة ما عجزوا عن مثله.و لم يجادلهم إلا على طريقة ما يعرفون من الجدل.إلى أن قال:"و سر في جميع ملابسات العرب هذا السير تجد الأمور كما تقرر، وإذا ثبت هذا وضح أن الشريعة أمية لم تخرج عما ألفته العرب"[2]

إذا بعد عرض العلوم التي عرفها العرب،و التي كانت تناسب وصف الأمية التي كانوا عليها، كان غرض الشاطبي من ذلك كله تقرير أمور مهمة منها:

"عدم تجاوز الحد في نسبة كل العلوم للقرآن الكريم ورفض أي علم لم تعرفه العرب"

---

[1]الموافقات:ج2ص 30،31

[2]المصدر نفسه،ج2 ص60،61

فقال رحمه الله :« إن كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين، أو المتأخرين ،من العلوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون و أشباهها،وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح.وإلى هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى...ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلاَّ أن ذلك لم يكن؛ فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا، نعم تضمن علوما هي من جنس علوم العرب، أو ما ينبني على **معهودها** مما يتعجب منه أولو الألباب، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه والاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا»[1]

وأورد رحمه الله الأدلة التي استندوا إليها منها قوله تعالى"وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ"[سورة النحل89] وقوله سبحانه"مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ"[سورة الأنعام 38]،كما واستدلوا أيضا بفواتح السور وهي مما لم يعهد عند العرب، وبما نقل عن الناس فيها، وربما حُكي من ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وغيره أشياء.

ورد الشاطبي هذه الأدلة بأن المراد بها عند أهل التفسير ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية، و رد استدلالهم بفواتح السور بأنه تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهدًا كعدد الجمل الذي عرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلاَّ الله تعالى، وتفسيرها بما لم يعهده العرب فلا يكون، ولم يدّعه أحد ممن تقدّم، فليس فيها دليل على ما ادعوا.

---

[1] الموافقات، ج 2 ص 60-61.

إلى أن يتقرر عنده أنه"ليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه،كما لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ويجب الاقتصار-في الاستعانة على فهمه-على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة فبه يوصل إلى علم ما أودع الله من الأحكام الشرعية ،فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه و تقول على الله و رسوله فيه»[2].

إذا تأملنا رأي الشاطبي في المسألة نجده يرفض ما اصطلح عليه العلماء اليوم بالتفسير العلمي للقرآن الكريم.

و المقصود بالتفسير العلمي:و هو نوع من أنواع التفسير بالرأي، يقوم على شرح، وإيضاح الإشارات القرآنية التي تبين عظيم خلق الله تعالى، وكبير تدبيره وتقديره لتلك الآيات المنظورة في الكون.فهو تفسير يتعلق بالمصطلحات علمية الموجودة في عبارات القرآن،ويستخرج منه مختلف العلوم و الآراء العلمية.[1]

وهذا التفسير بالتأكيد يتجاوز العلوم التي عرفها العرب فيضيف علوما حديثة عرفتها البشرية، ووجدت لها إشارات في كتاب الله تعالى، ولهذا لابد من مناقشة رأي الإمام الشاطبي في ما ذهب إليه من كون هذه الشريعة أمية و في ما بناه على هذه المسألة.

إن قول الشاطبي بأن الشريعة المباركة جاءت للعرب الأميين قول صحيح دلت عليه نصوص الكتاب والسنة كما ذكر ذلك رحمه الله، لكن وصفها بأنها أمية لأن أهلها كذلك قول غير مسلم به، ولم يقم عليه دليل من القرآن أو السنة.فوصف

---

[2] المصدر نفسه، ج 2، ص 61

[1] أصول التفسير وقواعده:خالد عبد الرحمان العك، ص 217،مباحث في إعجاز القرآن: مصطفى مسلم، ص 158

منهج التفسير عند الإمام الشاطبي: محمد دراجي، مجلة الموافقات ،العدد الأول، ذو الحجة1412هـ، جوان 1992، ص: 376

النبيﷺبالأمي والعرب الذين نزل القرآن عليهم بالأميين، لا يؤدي إلى وصف الشريعة بالأمية، إذ لا دليل على هذا القول.

و خالف بعض المتأخرين رأي الشاطبي في المسألة وردوا عليه، من هؤلاء الطاهر بن عاشور في تفسيره[(2)]، حيث قال"و هذا مبني على ما أسسه من كون القرآن لما كان خطابا للأميين و هم العرب فإنما يعتمد في مسلك فهمه، و إفهامه على مقدرتهم، وطاقاتهم و أن الشريعة أمية. وهو واه لوجوه ستة:

الأول:أن ما بناه عليه يقتضي أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال وهذا باطل ...

الثاني:أن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة وهو معجزة باقية فلا بد من أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة.

الثالث:أن السلف قالوا إن القرآن لا تنقضي عجائبه يعنون معانيه ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه

بانحصار أنواع معانيه.

الرابع:أن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تقف به الأسفار المتكاثرة.

الخامس:أن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء لا يقضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهوما لديهم فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام، ويحجب عنه أقوام، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

السادس:أن عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعا إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، و إن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات بل قد بينوا، وفصلوا، وفرعوا في علوم عنوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقتفي على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية، أما ما وراء ذلك فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتفسير

---

(2) التحرير والتنوير ج1ص 44-45.

أيضا؛لأن العلوم العقلية إنما تبحث عن أحوال الأشياء على ما هي عليه، وإن كان فيما زاد على ذلك فذلك ليس من التفسير، لكنه تكملة للمباحث العلمية، واستطراد في العلم لمناسبة التفسير ليكون متعاطي التفسير أوسع قريحة في العلوم"[1]

إن ما ذكره ابن عاشور في هذه الوجوه قوي جدا خصوصا الوجه الأول، فالله تعالى أنزل شريعته لينقل العرب وغيرهم من الأمم من حال إلى حال أفضل، منها فهو جاء ليخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

إن الشريعة جاءت للعرب و لغيرهم، فغيرهم لم يكن أميا، بل كانوا ذو حضارات، وفلسفات، وشرائع، وقوانين ثم لقد أنزلها الله لتكون خالدة، وعلم أنها تعبر الحياة من خلال تطور حضاري شاهق للعرب أنفسهم، ثم هي موجهة إلى كل جيل بنفس المقدار الذي وجهت به للعرب أول مرة، و هذا إعجاز متفرد لكونها صالحة في خطابها، و ألفاظها،و معانيها، لكل الناس في جميع العصور.[2]

زد على ذلك أن الشريعة و إن نزلت بلغة العرب، واتخذت من مادتها وألفاظها قوالب لمعاني شرائعها، إلا أنها جددتها تجديدا، وابتكرتها ابتكارا، و لم تحصر نفسها في أنماط العرب، و إنما التزمت أن تأتيهم بما يفهمون، ويعقلون وإن خالف كثيرا من طرائقهم، و ما كانوا يعهدونه؛ فهي معجزة للعالمين نزلت بلسان العرب المبين فسمت بأساليبهم، وواقعهم وجاءت على وجه الكمال في المعنى والمبنى جميعا.[3]

و عليه لا يمكن التسليم لرأي الشاطبي من كون الشريعة أمية بسبب نزولها على العرب الأميين، كما لا يمكن بتاتا حصر علوم القرآن و تفسير معانيه على ما

---

[1] المرجع السابق، ج 1 ص 45.

[2] المنهاج القرآني في التشريع: عبد الستار فتح الله سعيد، ص 720

[3] المرجع نفسه،ص 728. المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي:محمد مصطفى شلبي-ص42،43.

تعارفت عليه العرب من علوم فقط خصوصا في يومنا هذا الذي يعتبر العلم فيه لغة العصر التي تفهمها كل المجتمعات على اختلاف ألسنتها و تنوع أعراقها .

و في رأيي أن مانحاه الشاطبي في وصف الشريعة بالأمية غير سليم، وما رتبه على هذه المسألة غير مسلم به، لكونه حصر العلوم فيما عهدته العرب فقط، وما لم تعرفه العرب من العلوم فهو مردود عنده .

ولو تأملنا وجوه الإعجاز القرآني لوجدنا أنها تفوق ما عرفته العرب سواء في أسلوب حديثها، أو في علومها.

فمن أبرز هذه الوجوه الإعجازية التي ظهرت بشكل قوي في عصر الحديث الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، والذي على أساسه يقوم التفسير العلمي، فهو يشهد على أن القرآن الكريم يحتوي على علوم لم تعرفها العرب.

وأظن أنه من باب الإنصاف أن أشير في هذا المقام إلى أن ما ذهب إليه الإمام الشاطبي في هذه المسألة كان ناجما عن إسراف بعضهم في نسبة كل العلوم إلى القرآن الكريم من غير ضوابط ولا قيود .

فرأيه في حقيقة الأمر جاء دفاعا عن الشريعة حتى لا ينسب إليها ما ليس منها، ويخرج بها عن حد الاعتدال في هذه المسألة؛ فقد كان هناك من يرى أن القرآن الكريم حوى كل علوم المتقدمين والمتأخرين.

من أبرز العلماء الذين تزعموا هذا الرأي فخر الدين الرازي في كتابه"مفاتيح الغيب"فأدنى تأمل في المصنف تلاحظ فيه كثرة الاستطرادات في العلوم الكونية، والرياضية، والطبيعية، والهيئة، والفلك، وغيرها من العلوم،كما يستعرض أقوال الفلاسفة، ويرد عليهم بالتفصيل، وهذا زائد عن حاجة التفسير ومقاصده.

و منهم أيضا جلال الدين السيوطي الذي ذهب للقول بأن القرآن قد اشتمل على كل شيء، وأورد في مؤلفه الإتقان في علوم القرآن مجموعة كبيرة من العلوم نسبها للقرآن الكريم واستدل على كل علم منها بآية قرآنية، من هذه العلوم:الهندسة، و الجبر، والمقابلة، ونقل أن أوائل السور فيها مدد، وأعوام، وأيام لتواريخ أمم

سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة، و تاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضى،وما بقي مضروب بعضه في بعض إلخ.[1]

كما ذكر أن في القرآن أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها:كالخياطة، والحدادة والنجارة

إلى أن قال رحمه الله: «و أنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى وتحت الثرى...»[1]

وهذا حسب رأيي أمر فيه تكلف، ومبالغة، فليس من المعقول أن تنسب كل العلوم إلى كتاب الله تعالى بهذا الشكل، و محاولة تفسير القرآن الكريم من خلالها يفقده معناه.

و الواجب أن نقف في المسألة موقف الوسط، وذلك بعدم التمادي والاسترسال في نسبة كل علم، أو اكتشاف علمي إلى القرآن الكريم،كما لا ينبغي الوقوف عند ظواهر بعض الآيات القرآنية، و رفض تفسيرها تفسيرا علميا، مما قد يؤدي إلى إغفال جانب مهم يساعد على فهم كلام الله تعالى.

وعلى هذا الأساس أرى أنه لابد من مراعاة جملة من الاعتبارات وضعها العلماء لتحديد موقف القرآن من العلوم الكونية، والاكتشافات العلمية تتمثل في ما يلي:

أولا:أن القرآن الكريم لم يجعل العلوم الكونية موضوعه، وما ذكر منها فيه إنما المقصود منه الهداية، والدلالة على خالق الكون، وليس المقصود منه شرح حقائق علمية، أو حل مسائل حسابية، بل المقصود إنقاذ البشرية وهدايتها لما يحقق سعادتها في الدنيا والآخرة.[2]

---

[1]الإتقان في علوم القرآن، ص 728، 730

[1]الإتقان في علوم القرآن:ص731.

[2]مناهل العرفان:محمد الزرقاني، ج 2 ص 236.-التفسير والمفسرون:محمد حسين الذهبي، ج 2 ص 211.

ثانيا:أن القرآن يدعو إلى هذه العلوم في جملة ما دعا إليه من البحث، والتأمل والانتفاع بما في الكون،وهو حين يتحدث عن هذه العلوم يتحدث عنها حديث المحيط بأسرار الكون، وعلومه المختلفة.

ثالثا:لقد اختار القرآن أسلوبا غاية في البراعة عند حديثة عن الآيات الكونية، فهو يجمع بين البيان، والإجمال بحيث يقرأه كل جيل، فيكون واضحا عنده،كما أنه مجمل التفاصيل يختلف في معرفة دقائقه الخلق حسب الوسائل التي أتوها في كل عصر، وعلى هذا فكل من يتصدى لتفسير الآيات العلمية، و الكونية يجب أن يعلم أن القرآن كتاب هداية ،ويجب أن تبقى كل العلوم الكونية في حدود هذا الغرض لا تخرج عنه، كما يجب على المفسر عدم الإفراط، أو التفريط، والاقتصار على الحقائق العلمية، والابتعاد عن الفرضيات، والنظريات العلمية القابلة للتغير(1)

الخاتمة:

بعد هذا العرض حول معهود العرب في الخطاب و كيف وظفه الشاطبي في تفسير كتاب الله تعالى نصل إلى جملة من النتائج أهمها:

-إن ما ذهب إليه الإمام الشاطبي في كون القرآن الكريم أنزل على الأميين ابتداء أمر مسلم به، لكن لا نسلم له في كون هذه الشريعة أمية؛ لأن الله سبحانه و تعالى أنزل هذه الشريعة على العرب، وغيرهم- كما هو معلوم- لنقلهم من الحال الذي كانوا عليه إلى حال أفضل منه، من الأمية إلى العلم، من أجل هذا كان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى:"إقرأ بسم ربك "وهذا دليل على رفض الأمية، وأنها وصف لواقع العرب وقت التنزيل وليس أمرا يراد بقاء الأمة عليه.

-ما ذكره الشاطبي رحمه الله عن مراعاة عادات العرب، وما كان معهودا عندها حال التنزيل لفهم كلام الله تعالى أمر لابد منه، إلا أن هذا لا يترتب عليه رفض

(1)مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، ص 160-161. دراسات قرآنية: أبو الحسن الندوي، ص54، الفكر الإسلامي بين العقل و الوحي:عبد العال سالم مكرم، ص104-105.

العلوم التي لم تعهدها العرب ولم تعرفها في جاهليتها؛ لأن العرب وقتئذ كانوا أهل بداوة، ولم يكن لهم اطلاع كبير على الحضارات الأخرى التي كانت قبلهم، أو التي عاصرتهم ،لذلك غابت عليهم كثير من العلوم كانت عند غيرهم .

-إن توظيف العلوم والحقائق العلمية في فهم كلام الله بالضوابط والشروط التي حددها العلماء أمر أصبح يفرضه العصر الذي نعيشه ،فهو ضرورة ملحة تنطوي على فوائد جمة، منها:

الكشف عن جملة من علوم و حقائق العلمية وردت في كتاب الله تعالى، أو سنة نبيه ﷺتوصل إليها العلم في العصر الحديث وأصبحت تدل دلالة قاطعة على أن هذا الكتاب العظيم من عند الله تعالى وأن ما نطق به النبي ﷺإنما هو وحي يوحى.

المصادر والمراجع:

1/أصول التفسير وقواعده:خالد عبد الرحمان العك، دار النفائس، بيروت، ط.02-1406هـ -1986م

2/أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية:سميح عبد الوهاب الجندي،دار الايمان، الإسكندرية، مصر.

3/الإتقان في علوم القرآن:جلال الدين السيوطي، ت:فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، لبنان، ط.01-1424هـ-2003م.

4/إعجاز القرآن والدلالات الصرفية:يوسف المرعشلي، دار ابن حزم ،بيروت، ط: 01،1432هـ-2011م

5/التحرير والتنوير:الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ط:1984.

6/التفسير والمفسرون:محمد حسين الذهبي، مكتبة مصعب بن عمير الإسلامية، مصر،ط. 1424 هـ-2004م.

7/دراسات قرآنية: أبو الحسن الندوي، دار ابن كثير، لبنان، ط .01- هـ1423 - 2002م

8/فتح الباري شرح صحيح البخاري ابن حجر العسقلاني، ت:محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ

9/الفكر الإسلامي بين العقل و الوحي:عبد العال سالم مكرم،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط.2-1412هـ-1992م

10/كتاب العين: عبد الرحمن الخليل الفراهيدي، ت:مهدي المخزومي، دار ومكتبة الهلال.

11/لسان العرب:جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت،ط:03- 1414 هـ

12/مباحث في إعجاز القرآن: مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، سوريا ،ط.03 ،1420هـ-1999م .

13/المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي:محمد مصطفى شلبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط.1388هـ-1969م

14/مناهل العرفان:محمد الزرقاني، دار المعرفة، بيروت، ط. 01-1420هـ-1999م

15/المنهاج القرآني في التشريع: عبد الستار فتح الله سعيد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، مصر ،ط.1-1413هـ-1992م

16/الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي،تحقيق :عبد الله دراز، دار الكتب العلمية،بيروت.

المقالات:

1/معهود العرب في الخطاب:نحو صياغة قواعد التفسير:عبد الحميد السراوي، موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، 2008/03/20الساعة:05:56

2/معهود العرب في تلقي الخطاب الديني:أحمد شيخ عبد السلام، مجلة الشريعة الدراسات الإسلامية،المجلد 17 العدد 48، سنة:2002

3/منهج التفسير عند الإمام الشاطبي: محمد دراجي، مجلة الموافقات ،العدد الأول، ذو الحجة1412هـ،جوان 1992